

مواثاة ، أم مساواة؟

مواثاة طوعية شاملة للحياة ، عمل بها
و حث عليها الرسول ﷺ و قام عليها المجتمع الاسلامى المثلالى
أم

مساواة إجبارية محدودة فى المال يدعو إليها الشيوعيون
والاشتراكيون؟ دراسة ومقارنة ، و دعوة للتفكير و الانصاف

بقلم
أبى الحسن على الحسنى الندوى
أمين ندوة العلماء العام لكناؤ
(الهـند)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله ، و الصلاة و السلام على رسول الله !
أما بعد ! فهذه قطعة من كتاب المؤلف . الكبير ، الذي هو
عاكف على تأليفه ، و إخراجة في هذه الأيام ، وقد أسماه « الأركان
الأربعة » ، في ضوء الكتاب و السنة ، و في أسلوب العصر الحديث ،
و هذا هو الفصل الأخير ، الذي ختم به البحث في موضوع الركن
الثاني ، الزكاة .

و قد بدا للمؤلف ، أن يفرزها و ينشرها رسالة صغيرة ، لأنها
ثير جوانب جديدة هامة من التفكير ، و تلقى ضوءاً على القضية
التي تشغل التفكير الانساني ، و التفكير الاسلامي في وقت واحد ،
من وجهة نظر خاصة ، لعل الباحثين المنصفين يجدون فيها — على
وجازة هذه الرسالة و صغرها في الحجم — مادة جديدة للفكر ،
و نواة لبحث علمي أعمق ، و دراسة مقارنة أوسع و أشمل ، و بالله
التوفيق ؟

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مواطنة طوعية شاملة أم مساواة إجبارية محدودة ؟

كانت الزكاة المشروعة في الاسلام ، هي الحد الأدنى للبر والمواطنة في أموال المسلمين وثروتهم ، وفريضة لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، وهذا الذي تطالب به الشريعة الاسلامية بكل جد وصرامة ، وتعتبره شرطاً للاسلام ، وشعاراً للمسلم ، وركناً من أركان الدين الأساسية (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) (١) والذي ينكرها ويمتنع عن أدائها - عمداً وإصراراً - يعتبر أنه خلع ربة الاسلام وفارق المسلمين ، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيها وأقربها لدينه أبو بكر الصديق ، ووافقهم الصحابة رضی الله عنهم ، فكان إجماعهم .
و لكن الرسول ﷺ - في حياته الخاصة وفي ذوقه واتجاهه و

١ - سورة البراة ١١

في تحريضه و ترغيه و في وصاياه ، و توجيهاته ، لخاصة أصحابه ، و لمن أراد أن يأتسى به ، و سمت همته - لم يقف عند هذا الحد و لم يعتبره المثل الأعلى في البر و المواساة ، و أداء الحقوق ، و قد عبر عن ذلك في أسلوبه النبوي الموجز المعجز الذي تقصر عنه عبارات البلغاء و إطناب العلماء ، بقوله : « إن في المال حقاً سوى الزكاة » فقد روى الترمذى بسنده عن فاطمة بنت قيس ، « سئل أو سألت رسول الله ﷺ عن الزكاة ، فقال : إن في المال حقاً سوى الزكاة ، ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » الآية ، و تمام الآية (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيين ، و آتى المال على حبه ذوى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و السائلين و فى الرقاب ، و أقام الصلاة و آتى الزكاة و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا و الصابرين فى البساء و الضراء و حين البأس ، أولئك الذين صدقوا و أولئك هم المتقون (١) .

و قد دلت سيرته فيما آتاه الله من مال ، و سيرته فى أهل بيته الذين كان أعظم هذه الأمة برأ بهم و حذباً عليهم ، كما قال : « خيركم ، خيركم لأهله ، و أنا خيركم لأهلى (٢) » و سيرته فى أقرب الناس و أحبهم

١ - سورة القرة ١٧٧

٢ - رواه الترمذى و الدارمى ، عن عائشة رضى الله عنها ، و رواه

ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنه .

إليه على نظرتة النبوية الخاصة التي كان ينظر بها إلى هذه الأموال ، بل إلى هذه الحياة كلها بل إلى هذا الكون كله ، نظرة تقصر عن تصويرها والتعبير عنها المعاجم والثروة اللغوية - على سعتها و ضخمتها - وتسي إلى جلالها و سموها ، ونزاهتها و رفقتها المصطلحات الاقتصادية الجافة ، إنها نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته ، ويتخلق بأخلاقه ، ويستحضر اليوم الآخر (يوم لا ينفع مال و لا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم (١)) ويحن إليه أكثر من حنين السمك إلى الماء و أعظم من حنين الطائر إلى وكره ، فينطلق لسانه قائلاً : • اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة (٢) ، ويرى إلى هذا المال كزبد البحر أو غناء السيل ، أو حصى البطحاء لا يقيم له قيمة ولا وزناً ، ويرى الخلق عيال الله ، ويرى نفسه كولى اليتيم ، و يفضل لغيره الخصب و الرخاء ، و السعادة و الهدوء ، و لنفسه و عياله ، و أهل بيته الفاقة و الجوع ، و التقشف و خشونة العيش ، يقول : • أشبع يوماً و أجوع يوماً (٣) ، و يقول : • اللهم أرزق آل

٢ - رواه البخاري ج ٢ ص ١١٩

١ - سورة الشعراء ٨٨ ، ٩٨

٣ - روى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً ، • عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً و أجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك و ذكرك ، و إذا شبعت حمدتك و شكرتك .

محمد قوتاً (١) ، و يبلغ أزواجه رسالة الله ، و قد صادفت هواه و
 رغبته و ذوقه و اتجاهه ، فطاب بها نفساً ، و قربها عيناً (يا أيها النبي
 قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فقلن أمتهن و
 أسرحكن سراحاً جميلاً ، و إن كنتن تردن الله و رسوله و الدار الآخرة
 فإن الله أعد للحسنات منكن أجراً عظيماً (٢) فلم يكن منهن إلا أن
 آثرن الحياة مع الرسول ﷺ و لم يؤثرن الحياة مع آبائهن و إخوانهن ،
 الذين توسع عيشهم و لانت حياتهم .

و كيف كانت الحياة مع رسول الله ﷺ التي آثرنها و فضلنها ؟
 إستمع إلى عائشة الصديقة ، تحدث عنها في صدقها الموروث و تجربتها
 الواسعة ، و خبرتها التي لا خبرة فوقها « و لا ينسك مثل خير »

« ما شبع آل محمد يومين من خبز البر ، و لقد كنا نمكث الشهر
 و الشهرين لا يوقد في بيتنا نار ، و ما كان طعامنا إلا التمر و الماء ، و
 لقد توفي رسول الله ﷺ ، و ما في بيتنا شئ يأكله ذو كبد إلا كبرة
 خبز من شعير على رف لي (٣) و يدخل عليه عمر يوماً نراه على
 حصير قد أثر في جنبه ، و يرفع رأسه في البيت فلا يجد إلا إهاباً (٤)

٢ - الأحزاب ٢٨ ، ٢٩

٤ - الإهاب كبير من جلد

١ - رواه البخارى ج ٢ ص ٩٥٧

٣ - رواه البخارى و مسلم وغيرهما

معلقاً ، وقبضة من شعير ، وحصيراً تكاد تبلى ، فيكى عمر ، فيقول لله
رسول الله ﷺ ، ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فيقول عمر : يا نبي الله
وما لي لا أبكي وهذا الحصر قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا
أرى فيها إلا ما أرى ، و ذلك كسرى و قيسر ، في الثمار و الأنهار ،
و أنت نبي الله و صفوته ، فيقول عليه السلام : أ في شك أنت يا ابن

الخطاب ؟ أولئك قوم عجبات لهم طياتهم في الحياة الدنيا (١)

وكان لا يجد الراحة مع المال الفاضل عن حاجته التي لا حاجة
دونها ، و لا زهد فوقها ، و الفاضل من أموال الصدقة التي يأخذها
للوزع على فقراء المسلمين ، فعن عائشة رضی الله عنها أنها قالت : كان
لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير أو سبعة ، فأمرني رسول
الله ﷺ أن أفرقها ، فشغاني وجمع النبي ﷺ ، ثم سألتني عنها ، ما فعلت
الستة أو السبعة ؟ قلت لا و الله لقد كان شغلي وجمعك ، فدعا بها ، ثم
وضعها في كفه ، فقال ما ظن نبي الله لولتي الله عزوجل وهذه عنده (٢) .
وكان لا يتأخر في وضع هذه الأموال في مواضعها ، و إيصالها إلى

١ - اقرأ الحديث في الجامع الصحيح للبخاري ، و مسند ابن حنبل ،

و سنن ابن ماجه ، و الألفاظ متقاربة .

٢ - رواه أحمد

غايتها ، ولا يرجئ ذلك إلى وقت آخر ، وقد روى عن عقبه بن الحارث قال صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ثم قام مسرعا فخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته ، فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال ذكرت شيئا من تبر عندنا ، فكرهت أن يجسني فأمرت بقسمته (١) وفي رواية قال كنت خلفت في البيت تبرأ من الصدقة فكرهت أن أيتها .

وقد أوصى أصحابه وأمه بمثل هذه الأخلاق وبمثل هذه السيرة وبمثل هذه النظرة إلى المال ، وصايا مرقة مرغبة ، يتخيل من يقرؤها في كتب الحديث ، أن ليس لأحد حق في فضل ماله وزائد أسبابه و يتخرج بعد ما يقرؤها ، ويطلع عليها من التمتع بما بسط الله له في الرزق والتمتع بما وسع الله له في الدنيا ، و يضيق بميسور العيش و فضول الحياة ، و أطايب الطعام ، و أنواع الثياب ذرعا ، و ما هو إلا حث و تحريض ، و ترغيب و تحريض ، و أسوة الرسول التي يقول الله عنها ، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر و ذكر الله كثيراً . (٢)) وقد صح عنه أنه قال :

« من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، و من كان

له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له (١) ، وقال : من كان
عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، و من كان عنده طعام ثلاثة فليذهب
برابع (٢) ، وقال : ما آمن بي من بات شبعان و جاره جائع إلى
جانبه ، و هو يعلم (٣) ، و قد روى أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ،
و قال له : اكسني يا رسول الله فأعرض عنه ، فعاد الرجل يقول :
اكسني يا رسول الله فقال له : أمالك جار له فضل ثوبين ؟ قال : بلى !
غير واحد ، قال : فلا يجمع الله بينك و بينه في الجنة (٤) .

و رفع قيمة الانسان ، و قيمة مواساته ، و قضاء حاجته ، إلى أن
بلغ ذلك مبلغاً لا يتصور نوقه ، و أصبح من يقصر في ذلك كمن قصر
في جنب الله ، فقد جاء في حديث قدسى : إن الله عزوجل يقول يوم
القيامة ، يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ! فيقول ابن آدم : يا رب كيف
أعودك و أنت رب العالمين ؟ فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلاناً
مرض فلم تعده ؟ أما إنك لوعدته ، لو جدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك

١ - أخرجه أبوداؤد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

٢ - رواه الترمذى ، و قال - حسن صحيح

٣ - رواه الطبراني و البزار و اسناده حسن

٤ - رواه الطبراني في الأوسط

فلم تطعمنى فيقول : يا رب كيف أطعمك ، و أنت رب العالمين ؟ فيقول
الله : أما علمت أن عبدى فلاناً استطعمك فلم تطعمه ؟ أما أنك لو أطعمته
لوجدت ذلك عندى ، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ! فيقول : يا رب
كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه
أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى (١) ، وقد كان غاية ذلك أن
قال ، و لا منزلة فوقه فى العدل و الفضل ، و المواساة و الانصاف :
• لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٢) •

و قد أثرت أسوة الرسول ﷺ فى حياة الصحابة رضى الله تعالى
عنهم و فى أذواقهم ، و اتجاهاتهم ، و سيرتهم فى أهالهم و فى أموالهم
التأثير المطلوب المتوقع ، و سرت هذه الروح فى عروقهم و عقولهم و
أخلاقهم ، حتى أصبحت حياتهم صورة - بقدر الامكان - لحياة الرسول
ﷺ ، و كان أشبه الناس به بطبيعة الحال ، أقربهم إليه و أصدقهم به ،
فجلت فى حياة الخلفاء الراشدين و كبار الصحابة ، و قد روى التاريخ
من أخبار زهدهم و برهم و مواساتهم ، و تورعهم فى ذات أنفسهم و أهالهم
و إيثارهم لشظف العيش و قلة الأسباب ، و التقشف ما لا يزال ذروة
فى تاريخ الأخلاق و الديانات ، لا يصل إليها السابقون فى الأمم .

٢ - رواه البخارى

١ - رواه مسلم

فمن ذلك ما رواه المؤرخون أن امرأة أبي بكر الصديق خايفة
المسلمين اشتهدت حلوى واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه
به ، فلما علم ذلك رد الدرهمات إلى بيت المال ، وأسقط من نفقته
كل يوم ما فضل منها ثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش
عليها الانسان ، وليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم ،
و تتوسع به في المطاعم .

و زهد عمر في حياته و تقشفه مضرب المثل في التاريخ ، و يكفي
أن تقرأ خبر رحلته بصفته خليفة و أميراً للأومنين إلى الجالية . فكان
على جمل أورق تلوح صلغته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة تصطفق
رجلاه بين شعبي الرحل بلا ركاب، و طاءه كساء انبجاني ذو صوف هو
وطاءه إذا ركب و فراشه إذا نزل ، حقيته نمره أو شملة محشوة ليفاً ،
هي حقيته إذا ركب و وسادته إذا نزل و عليه قميص من كرايس قد
رسم و تحرق جنبه (١١) .

و أما عثمان و هو أكثر إخوانه مالا و أوسعهم أسباباً ، فقد
روى شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضی الله عنه كان يطعم
الناس طعام الامارة و يدخل في بيته فيأكل الخبز و الزيت ، و أما على

بن أبي طالب ، فهو من زهاد الصحابة المعدودين المعروفين ، يصفه صاحبه
ضرار بن ضمرة فيقول :

« يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل و ظلمته ؛ كان
والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقرب كفه ويخاطب نفسه ، و يعجبه
من اللباس ما خشن ، و من الطعام ما جشب ، كان - و الله - كأحدنا
يحيننا إذا سألناه ، و يتبدئنا إذا أتينا ، و يأتينا إذا دعوانا (١) .

وكان تأثير هذه الأسوة في الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها وطول
عشرتهم له ، فكانت لعائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ اليد الطولى
في ذلك ، و قد روى المؤرخون « إنها تصدقت مرة بمائة ألف درهم ،
و ليس عليها إلا ثوب خلق ، و كانت صائمة ، فقالت لها خادمتها : لو
أبقيت شيئاً لتفطري عليه ! فأجابتها ! لو ذكرتني لفعلت ، و تصدقت بمائة
ألف و هي جائعة فنسيت نفسها و ذكرت الناس ! (٢) »

و سرت هذه الأخلاق و هذه الروح في المجتمع الاسلامي الأول ،
فكان ذلك دأب الصحابة و دينهم ، يقول ابن عمر رضى الله عنهما ،
« لقد آتى علينا زمان - أو قال : حين - و ما أحد أحق بديناره

١ - صفوة الصغرة لابن الجوزي

٢ - رواه الحاكم في المستدرک

ودرهمه من أخيه المسلم (١) ،

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة في المواسة تكاد تبلغ إلى حد المساواة ، و حسن الجوار يبلغ إلى آخر نقطة في الايثار ، من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه ، قال : « أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الانسان إلى آخر ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداولته سبعة (٢) .

و انتقل هذا الشعور الدقيق ، و الحس المرهف و الغرام بالمواسة و انتقل في الأجيال الاسلامية اللاحقة ، و كان للتابعين باحسان القدر المعلى في ذلك بطبيعة الحال ، يقول سيد التابعين الحسن البصرى : « لقد عهدت المسلمين و أن الرجل منهم يصبح فيقول : « يا أهليه ! يا أهليه ! يميمكم ، يميمكم ، يا أهليه ! يا أهليه ! مساكينكم ، مساكينكم ، يا أهليه ! يا أهليه ! يا أهليه ! جاركم ، جاركم ، (٣) » و كان لبني هاشم و سادة أهل البيت قدم صدق في هذا المضار ، و قد روى التاريخ عن جود الحسن بن علي و عبد الله بن جعفر ، و رقة عاطفتها الشيء الكثير ، و كان لعلي بن

١ - راه البخارى في الادب المفرد

٢ - احياء عالم الدين للقرالى ج ٢ ص ١٧٤

٣ - رواه البخارى في الادب المفرد

حسين بن علي رضي الله عنه وعن آبائه التقدم و الرئاسة في هذه المآثر
والمكرمات ، قال محمد بن اسحاق : • كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون
من أين يعيشون ؟ و من يعطيهم ؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك
فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، و لما مات وجدوا
في ظهره و أكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل و المساكين (١) ،
و توارثت الأجيال الاسلامية الفاضلة هذه السيرة و هذا النوق

الرفيع ، و هذا الحس المرهف ، و هذه الحسبة الدقيقة على نفوسهم و
أموالهم و مثالها الراسخون في العلم و الدين ، و الربانيون و المربون أجمل
تمثيل و أروع في كل عصر و في كل بلد ، و زخرت بأمثالها و روائعها
كتب التاريخ و التراجم ، و ما فاتها و أفلت من استقصاء مؤلفيها البارعين
فذكر في غير مظانه أغرب و أروع مما حوته كتب التاريخ ، و كان
شعار الربانيين و الشيوخ المرين و مبدأهم أن لا يبيت عندهم درهم و لا
دينار ، و أن يؤثروا على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة ، و أن يكون
ما يكرمهم الله به من أموال و هدايا و طرف و خيرات تأتيهم من
الملوك و الأمراء ، و الأغنياء و الأثرياء و فقراً على فقراء البلد و ذوى

١ - أكثر هذه الأمثال و الحكايات ، التقطناها من كتاب • اشتراك
الاسلام • لصديقنا المرحوم الأستاذ مصطفى السباعي .

الحاجات الذين لا سبيل لهم إليها ، فكان مبدؤهم و سيرتهم أن • توخذ
من أغنيائهم و ترد على فقرائهم • فكانت سفرتهم من أوسع الموائد و
أغناها لجميع طبقات الناس، كما كان قلبهم من أوسع القلوب ، و أسخاها
لجميع الناس ، و قد أثر عن سيدي عبد القادر الجلي ، الذي يعبر فيه
عن جميع إخوانه ، و من كان على شاكلته أنه قال : « كفى مثقوبة لاتضبط
شيئاً ، لو جاعني ألف دينار لم تبت عندى (١) » و قال : « أود لو كانت
الدنيا بيدي أطعمتها الجائع (٢) »

وكان لأبعد ثغور الاسلام و لأقصى أطراف العالم الاسلامي ؛
من هذه السيرة ، و من هذا الضرب من الناس ؛ و من هذا الطراز
للانسانية نصيب غير منقوص ؛ و تراجم هؤلاء المخلصين الربانيين والدعاة
المربين حافلة بنوادير الحكايات و روائع الأخبار في الزهد و الايثار ؛
و المواساة و المساواة ؛ و الارحية و النهماة يذل الأموال ؛ و حسبنا
أن نعرض نموذجين من هذه النماذج التي تكاد تكون مطردة في حياة
هذه الطبقة ؛ و سيرها متشابهة ؛ و أخلاقها متشاكله ، كتشابه الأوراق في
الشجرة ، فكلمهم من غرس تعاليم النبوة و فروع شجرة (أصلها ثابت و
فرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها)

منها أن الشيخ نظام الدين الدهلوى من رجال القرن الثامن الهجرى يقول خادمه : إنه كان يترك الطعام المذوع الفاخر عنده للتسحر ، فكان يجترىء بلقعات ويقول : أجدته فى بعض الأيام لم يتناول منه شيئاً وكنت أراه لا يفطر إلا بما يقيم الصلب ، فقلت له يوماً ، نفسى فذاك كيف يحافظ سيدى على حياته وصحته مع هذا التقليل من الغذاء ؟ فقاضت عينه على ذلك ، و غلبه البكاء ، و قال يا فلان ! كم من فقير بئس ، و كم من مسافر بات فى المساجد و الطرقات على الطوى لم يجدوا لقمة يتقون بها ، فكيف أسبغ هذا الطعام و الناس يبيتون جياعا ، و يصبحون جياعا (١) ، فلما دنت وفاته طلب أصحابه و قال لهم : إذا ادخر إقبال خادمه ، شيئاً من الحبوب و الطمام ، فاشهدوا أنى برىء من ذلك ، و أنه هو المسئول أمام ربه ، فقال إقبال : إتنى لم أترك شيئاً ، و قد تصدقت بكل ما وجدته إلا حبوباً يأكلها المقيمون فى هذه الزاوية بضعة أيام فقال : أدعوا الى الناس فلما حضروا فقال : دونكم الحبوب و ما تجدون فى هذه الزاوية من الرزق و الطمام فتهوه نهياً ، و أمرهم بأن يكنس ذلك المكان ، و يجعلوه قاعاً صافصفاً .

و النموذج الثانى ما رواه مؤرخ هندى عن الشيخ السيد محمد سعيد

الأبالوى ، وهو من رجال القرن الثانى عشر ، فيقول : « زاره مرة
 روشن الدولة وكان أميراً من أمراء السلطان فرخ سير » (ملك الهند
 المغولى) و قدم ستين ألف روية (١) لبناء زاويته ، فأمره الشيخ أن
 يترك هذا المال فى مكان ويستريح ، فانصرف روشن الدولة ؟ فأرسل
 الشيخ إلى الفقراء ، و أرسل هذا المال إلى الأياى و المساكين ، و أهل
 الحاجة فى ضواحي البلد و فى المدن المجاورة حتى لم يبق منه فلس ، فلما
 أتى روشن الدولة قال له : « لا يبلغ الثواب فى بناء العمارة ثواب خدمة
 ذوى الحاجة و الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله » و وصلته مرة
 رسائل السلطان محمد فرخ سير و الأمير روشن الدولة ، و الأمير عبد الله
 خان ، و أمر بثلاث مائة ألف روية (٢) فوزعها كلها فى القرى المجاورة
 و الأشراف الساكنين فيها (٣) .

و قد يقول القارىء إن هذه سيرة طبقة زهدت فى الدنيا و رفضت

١ - تساوى أربعة آلاف جنيه استرلينى ، و إن قدرت قدرتها

الشرايئة ذلك اليوم تصبح أضعافاً مضاعفة

٢ - تساوى 14000 جنيهاً استرلينياً

٣ - نظام التعليم و التربية ، فى أردو ، المجلد الثانى ، للعلامة مناظر

أجسن الكيلانى .

أسبابها وعاشت في عزلة عن الدنيا وعن الناس ، فهل هناك أمثلة لهذه
الزهادة والبر والموااة والاستغناء و الايثار في طبقات أخرى من هذه
الامة ؟ و يجههم التاريخ الأمين فيقول : نعم ! و في كل طبقة من
طبقات هذه الامة ، و في كل جيل من أجيالها و في كل بيئة من بيئات دنيا
الاسلام من اتسى بالرسول ﷺ و آتى بغرائب في هذه الأخلاق و في
سيرته ، في ماله و في عياله و جيرانه و أهل بلده ، و أبناء جنسه ، ولكن
التاريخ لم يسجل إلا مآثر من لفت نظره و فرض عليه ذكره ، و تسجيل
حوادث حياته و جوانب شخصيته من الملوك و الأمراء و الصلحاء و العلماء ،
و تقتصر هنا على طبقتين فحسب ، و هما طبقة العلماء الأعلام ، و طبقة
الملوك و الحكام .

نختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية الذي
ينتقد عليه من لا يعرفه الجفاف ، و يعتقدون أن الجانب العلي يطغى
على الجانب العاطفي ، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمري :
« كانت تأتيه القناطير المقتطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة
و الأنعام و الحرث ، فيهب ذلك بأجمعه و يدعه عند أهل الحاجة في
موضعه لا يأخذ عنه شيئاً إلا ليهبه ، و لا يحفظه إلا ليذهبه ، و قد بلغ
من السخاء و الايثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب و يقدمها إلى

السائل إذا لم يجد شيئاً آخر ، يقول الحافظ ابن فضل الله :

• كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به

الفقراء ، و يقول أحد الرواة : • وكان يفضل من قوته الرغيف و

الرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه (١) .

و نختار من طبقة الملوك و الحكام السلطان صلاح الدين الأيوبي

الذي حكم أكبر دولة إسلامية في عصره يشهد عنه صديقه و رفيقه ابن

شداد فيقول : • إنه ملك ما ملك ، و مات و لم يوجد في خزائنه من

الفضة إلا سبعة و أربعون درهما ناصرية ، و من الذهب إلا جرم واحد

صوري ، ما علمت وزنة »

و لما مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام

الشمالية إلى صحراء النوبة في الجنوب ، لم توجد في خزائنه ما يكفونونه و

ينفقون على تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن

التبن الذي بليت به الطين ، و أخرج بعد صلاة الظهر ، في تابوت مسجي

بثوب فوط ، و كان ذلك و جميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه ،

قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه (٢) .

١ - مكواكب الدرية

٢ - النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٣٥١

وايست هذه قصة جيل واحد ولا قصة مدرسة واحدة من المدارس
الفكرية و الروحية الكثيرة ، فلم يزل هذا شعار العلماء الربانيين والشيوخ
الكاملين ، و لم يزل مبدؤهم • لكل يوم رزقه و قوته • فلم يكونوا يدخرون
شئاً و لا يشحون بشئ خشية الاقار ، و على ذلك أدركنا شيوخنا و
أساتذتنا ، فكانوا يتخرجون من أن يفضل عندهم شئ يحتاج إليه عباد
الله ، أو يبيت عندهم درهم أو دينار و هم في غنى عنهما ، و كان ذلك في
غير رهبانية أو تحريم لما أحل الله ، و كذلك في غير تشريع لما لم يشرعه
الله ، و لا في تشديد فيما لم يشدد الله فيه ، و لا إجبار و إرهاب ، و
لكنه خوف من المحاسبة و رافة بالخلق ، و تأس بأسوة الرسول و سيرته
في الانفاق و الايثار ، و تطوع و تبرع ، و ترغيب صامت بالأمثال
العملية ، و النماذج الحية ، فكان لها التأثير العميق في النفوس و القلوب ،
يحمل التلاميذ و المحبين على التقليد ، و الاتباع .

فكان المجتمع الاسلامي - على علاقته و على أدوائه الكثيرة التي
لم يزل المصلحون يحاربونها - أفضل المجتمعات البشرية في عاطفة البر و
المواساة التي تغلغت بفضل التعاليم الاسلامية في أحشائه ، و أكثرها
تحرراً من عبادة المادة و المعدة ، يكثُر فيها الأفراد الذين يثورون على
سلطان المادة و يخضعونها لسلطان الدين و المثل الخلقية الاسلامية ، فكان

التنافس التجارى و الأثرة الفردية أو الطبقية أضعف فيه (١) مسنه في المجتمعات التي لا تؤمن بحياة غير هذه الحياة ، و لا تعرف غاية غير غاية الثراء و الرخاء ، و تسوقها المائل الاقتصادية سوقاً عتيفاً لا رحمة فيه و لا هوادة ، فكانت هذه سمة المجتمع الاسلامى ، رغم أنه بلغ منتهى الضعف في العصر الأخير ، وكان أكثر استعداداً و قابلية للتقدم في مضمار العدالة الاجتماعية ، و تحقيق المثل الانسانية العليا من كل مجتمع بشرى ، لخضوعه للبادئ الاسلامية في قليل أو كثير ، و لوجود الرباط الايمانى الذى يربط أفراده و يجمع أشناته .

(١) • حدثنى بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف في الحجاز ، أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم و النظر في مصالحهم ، و الاخلاص و الايثار لهم ، قال : كان بعض التجار إذا أتاه زبون في آخر النهار ، و قد باع ما يكفيه لقوت يومه ، و ما حدده من الربح و الوارد ، و لم يكن زميله الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم ، قال له في لطف و هدوء : • دونك هذا الدكان الذى هو بجوارى ! تجد عنده ما تجده عندى و قد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم فهو أحق بأن تشتري منه ، و يتحدث الأستاذ محمد أسد النسأوى عن مدينة إسلامية

ثم جاء أقوام فقدوا الثقة بالانسان و الانسانية ، ففضلوا المساواة
الاجبارية المحدودة في المال ، على المساواة الطوعية الشاملة للحياة ، ونسوا
أو تناسوا ، أن المال ليست هي حاجة الانسان الوحيدة ، وأن المساواة
فيه أو الشركة لا تسد كل فراغ في نفسه و في مشاعره و أحاسيسه و في

عربية كبيرة (هي دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلي :

• وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها ، أن
منهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين
يعاملون بعضهم بعضاً أو تلك التجار في الحوانيت الصغيرة ، أو تلك
الذين لا ينون يباحون على المارة أو تلك كانوا يبدون و كأنها ليس
فيهم أيما قدر من الخوف و الحسد ، حتى إن صاحب دكان منهم
ليترك دكانه في عهدة جاره و مزاحمه ، كلما دعتة حاجة إلى التغيب
بعض الوقت ، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب
صاحبه عنه يتساءل في ما بينه وبين نفسه ، ما إذا كان ينتظر عودة
البائع أو ينتقل إلى الدكان المجاور ؟ فيتقدم التاجر المجاور دائماً
- التاجر المزاحم - و يسأل الزبون عن حاجته ، و يبيعه ما يطلب
من البضاعة - لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب - و يترك له
الثن على مقعده ، أين ؟ في أوروبا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه
الصفقة ؟ (الطريق إلى مكة ص ١٦٧ باختصار)

حياته ، و لا تضمد كل جرح من جروحه ، إن حاجته إلى مواساة
شاملة للحياة كلها أشد من حاجته إلى مساواة في المال كله ، و في المرافق
كلها ، و في الموارد بأسرها ، و قد تفعل كلمة رقيقة ، أو دمعة بريئة
يثيرها الشعور بالألم ، ما لا تفعله الأموال الطائلة ، و العطايا السخينة ،
وهو في حاجة إلى مساعدة إخوانه ، وإعانتهم في بعض الأحيان ، و إلى
مشاركتهم في آلامه و متاعه في أحيان أخرى ، و إلى رقة شعورهم و دقة
إحساسهم حيناً ، و إلى لين عريكتهم و دماثة خلقهم و بشرهم ، و حسن
لقائهم حيناً آخر ، و لذلك كان التوجيه النبوي أشمل لأنواع البر و المواساة .
و أصدق تعبيراً عن الأحاسيس الانسانية ، فقال النبي ﷺ و هو يذكر
طرق البر و أنواع الصدقة : « تجدل بين الاثنين صدقة ، و تعين الرجل
في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، و الكلمة الطيبة صدقة
و بكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، و تمييط الأذى عن الطريق
صدقة (١) » و في حديث آخر « قال يعين ذا الحاجة الملهوف ! قال
أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يأمر بالمعروف أو الخير ، قال أرأيت إن
لم يفعل ؟ قال يمسك عن الشرفانها صدقة (٢) » و في حديث آخر « قال
تعين صانعاً أو تصنع لأخرق قلت يا رسول الله ﷺ أرأيت إن ضعفت

عن بعض العمل ؟ قال تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك (١) ، وفي حديث آخر ، و تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، و أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الردى البصر لك صدقة ، و إمامتك الحجر و الشوك و العظم عن الطريق لك صدقة ، و إفراخك من دلوك في دلو أخيك ، لك صدقة (٢) .

وكانت نتيجة هذا الاختيار غير الموفق و إضرار المساواة أو الاشتراكية التي تفرضها الحكومة على المواسة التي تنبع من أعماق القلوب و تتدفق في نواحي الحياة و في عروق المجتمع ، أن قام مجتمع في هذه البلاد ، الشيوعية و الاشتراكية ، لا يعرف أهله لذة المواسة لبني الجنس و العطف على الإنسانية ، و الرقة للضعفاء و الفقراء ، و الاخلاص و النصيحة للشركاء و الزملاء ، و يصبحون كلهم تجاراً متنافسين ، و أعداءً متباغضين لا يثق أحد بأحد ، و لا يتنازل أحد لأحد ، بعضهم يتجسس على بعض و يلفق عليه الأخبار ، و يزور عليه القضايا ، و يشتم بمصابه ، و يحزن بسعادته ، و يتحول البلد كله إلى ميدان حرب أو بناء محكمة .

وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد الناس الشعور بالمسولية والنزول

٢ - زوراء الترمذى عن أبى ذر مرفوعاً

١ - متفق عليه

بالتبعات ، الذى فيه سر الشرف الانسانى ، وتخلوا عن كل تهمة ومسؤلية
وأصبحوا هملا وسوائم ، لاهم لها إلا العلف والرتع ، والشعب المفرط
وانقلت كل مسؤلية وكل تبعه إلى الحكومات ، وإلى الجهاز الادارى
و إلى القوانين والعقوبات ، وأصبح المجتمع غلاما قاصراً لا يميز عنده
ولا عقل ، فالحكومة هى التى تأخذ وتعطى ، وتمتى لكل فرد حاجته ،
و تتكفل بذلك ، فلا معنى للعطف والمواساة ولا معنى للسخاء والايثار
ولا حاجة إلى شئ من ذلك ، فكل شئ مكفول مضمون والناس
كآلات الصماء .

لقد تجلت فوائد المواساة الطوعية و نتائجها الباهرة ، و ما جرت
على أهلها من الراحة والهدوء ، والسعادة الداخلية ، والثقة المتبادلة ،
والحب المشترك ، والسلام الشامل ، ولذة الروح و رضا الضمير ،
والاعتزاز بالانسانية ، والتفاؤل فى الحياة ، وشعور كل فرد بمسؤليته
وواجبه ، لقد تجلى كل ذلك فى المجتمع الاسلامى المثالى الأول فى أروع
مظاهره ، و أجمل مناظره ، و أعمق معانيه ، ويتجلى فى كل مجتمع يأخذ
بمبدأ المواساة الطوعية الشاملة ، مقابل المساواة الاجبارية المحدوده ، أو
الاشتراكية الضيقة الجامدة ، فأعضاء المجتمع متحابون متناصحون ، شهداء
بالخير ، يركى بعضهم بعضاً ، و كل جيل يشهد للجيل الذى سبقه بالفضل

و السبق ، و يدعو له بالقبول و المغفرة ، (ا) و الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفرنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان و لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم (١) ذلك هو المجتمع الذى كان كل عضو من أعضائه مرآة لأخيه يقيسه على نفسه فينبى عنه كل تهمة و يبرئه من كل نقيصة ، فقد قال الله تعالى : « لو لا إذ سمعتموه ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم خيراً و قالوا هذا إناك مبین (٢) » المجتمع الذى ضرب النبى ﷺ له مثلاً بليغاً ، فقال « مثل المؤمنین فی توادم و تراحمهم و تعاطفهم مثل الجسد ، إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى (٣) » المجتمع الذى كل عضو فيه جارس كريم ، و ناصح أمين لصاحبه ، فقد جاء فى الحديث : « المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ، و لا يكذبنه ، و لا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه و ماله و دمه (٤) » .

حين أصبحت الحياة فى بلاد كثيرة شقاءً و جحيماً • كلما دخلت أمة لعنت أختها (٥) • و كلما جاء دكتاتور • لعن السابق و رماه

٢ - سورة نور ١٢

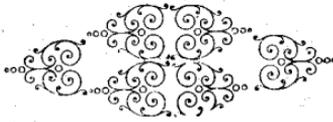
١ - سورة الحشر ١٠

٢ - حديث متفق عليه

٤ - رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه

٥ - سورة الاعراف ٣٨

بالغدر والخيانة ، وكل من تسلّم زمام القيادة ، انتقم من أعدائه ومنافسيه
انتقاماً شديداً ، واضطهد وحاكم وسفك الدماء ، « وإذا تولى سعى
في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد(١)
فمن أبى إلا الطريق الشاقة الطويلة ، والتجربة المرهقة العقيمة ،
قليل له ولأمثاله ، « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير إهبطوا
مصرأ فان لكم ما سألتكم (٢) .



البعية السنوية

صوت الحق والدعوة الحكيمة والفكر الاسلامى السليم

فى ربوع العالم الاسلامى

تصدر من عشر سنوات

رئيس التحرير محمد الحسنى

مدير التحرير سعيد الأعظمى

١٠٠ صفحة كل شهر حافلة بأنواع من بحوث و مقالات

و تراجم تغذى العاطفة وتنور الفكر وتثير الوعى ، وتدعم
ثقة الجيل الجديد بالاسلام .

شعارها

الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع

و بين الايمان الراسخ و العلم الواسع

الاشتراكات

فى الخارج جنيه واحد (استرلينى) بالبريد العادى

د د جنيهان و نصف بالبريد الجوى

فى الهند و باكستان عشر رويات

تصدرها

(ندوة العلماء) لكهنؤ الهند